الفصل الرابع عشر

المنهج عند فلفريدو باريتو
طبيعة القضايا الأساسية

المحتويات

مقدمة

أولا : علم الاجتماع ، مشروعيته ومجالاته .

ثانيا : المنهج فى علم الاجتماع ، الأبعاد والاجراءات .

ثالثا : التفسير المنهجى ، مبادئه الرئيسية .

مقـدمـــة :

ترتبط اسـهامات فلفريدو باريتو المنهجية بطبيعة القضايا النظرية التى شكلت بنائه النظرى ، وطبيـعة تصـوره للواقع الاجتمـاعى والتفاعـلات الحادثة فيه ، واذا كـانت قضـاياه النظرية قد اختلف فى طبيعتها عن مختلف التصورات النظرية التى عايشت عصره . فاننا نجد ان منهجيته قد اختلفت اختلافا واضحاً عن مـختلف التوجهات المنهجية التى سادت عصره ، بحيث نجد أنه بموقفه النظرى واجراءاته المنهجية وقف بعيدا عن التيار الذى سار فيه مفكرون آخرون .

فمن ناحية رؤيته للحقيقة الواقعية ومحاولة تحديد المتغيرات المؤثرة فى تفاعلها نجد ان باريتو يتجاهل كافة المتغيرات التى عمل بها عصره ، وهى المتغيرات الكامنة خـارج الانـسان – العنصر الأساسى فى التفاعل – كالمتغيرات الاقتصادية والسياسية والثقافية والجغرافية وحتى الاجتماعية ، ويتجه الى التأكيد على أن كافة المتغيرات التى عمل بها المفكرون الآخرون هى مجرد نتائج لمتغيرات أساسية هى تلك الكامنة فى عمق الذات البشرية أو الانسانية ، والتى تشكل بداية التفاعل ، وبداية الوجود الاجتماعى ذاته . وحسب طبيعة هذه المتغيرات الراسبة فى العمق تتحدد طبيعة المجتمع ، وتتحدد أيضا طبيعة النظام السياسى المحيط .

من ناحية ثانية نجد أن فلفريدو باريتو قد يبنى منهج العلوم الطبيعية من ناحية حيث التجربة هى المصدر الحقيقى للحقيقة ، ثم هو فى ذات الوقت اهتم بتطوير المفاهيم المعبرة عن الحقائق ، ثم بطبيعة العلاقات المنطقية التى تربط بين هذه المفاهيم لتشكل منها بناءاً تصوريا متكاملاً . واذا كانت التجربة هى جوهر المنهج فى العلوم الطبيعية ، وإذا كان المنطق الرياضى هو جوهر علم الاقتصاد ، فقد كانت علوم الاقتصاد والطبيعة هى النماذج التى ينبغى ان تحتذيها الممارسة العلمية فى اطار علم الاجتماع .

اضافة الى ذلك فقد رفض باريتو التفسيرات الأحادية ، ورأى أن أى واقعة اجتماعية طرحت لها تفسيرات متنوعة ، وهو مايعنى أن تنوع العوامل يمكن أن يشكل عوامل مؤثرة فى الواقعة ، وهو هنا يؤمن بتعدد العوامل . اضافة الى تأكيده بأنه اذا عجز عامل أو قانون معين عن تفسير واقعة اجتماعية بحيث أعتبرت استثناءاً له ، فإنه بالتأكيد تكون خاضعة لفاعلية قانون أو عامل آخر .

ويتميز موقف باريتو من الأدوات المنهجية فى علم الاجتماع برفض الوسائل أو الأدوات التى تحاول استكشاف الواقعة الاجتماعية من خلال مظاهرها الخارجية ، بينما المظهر ماهو إلا تجليا لحقيقة أساسية راسبة ينبغى أن يتجه اليها استكشاف أدوات البحث ، وهو هنا ينتقد الاستبيان باعتباره يحاول التعرف على استجابات البشر اللفظية نحو موضوع معين ، حيث يؤكد أن هذه الاستجابات اللفظية ليست سوى تبريرات تعطى لأفعال أو سلوكيات معينة ، قد تكون هذه التبريرات صادقة أو زائفة ، غير أنها فى كل الأحوال لاتكشف عن الرواسب التى تشكل الدوافع الحقيقة للسلوك أو الفعل . وهى الجوانب التى سوف نعرض لها فى الصفحات التالية .

أولا : علم الاجتماع ، مشروعيته ومجالاته .

من المنطقى أن تصبح قضية نشأة علم الاجتماع ، وتحديد مجالة من القضايا الرئيسية التى لابد أن يتعرض لها باريتو ، وذلك باعتبار أن هذه القضية كانت من القضايا الهامة التى شغلت النظرية الاجتماعية فى مرحلتها الكلاسيكية . وقد ظهر اهتمام باريتو بعلم الاجتماع نتيجة لاهتمامه بعلم الاقتصاد أساسا . فالمتغيرات التى تعمل بها النظرية الاقتصادية ، أقل من أن توفر فهما كاملا للسلوك البشرى . ذلك أن الاقتصاد وخاصة الاقتصاد الحديث قد خص نفسه بجانب واحد من الفعل أو السلوك الانسانى ، أعنى الفعل المنطقى أو العقلانى الذى يسعى الى امتلاك المصادر النادرة . وقد تحول باريتو الى علم الاجتماع حينما أدرك أن الأفعال غير المنطقية أو اللاعقلانية هى التى تتحكم فى التفاعل الاجتماعى ، وهى الأفعال التى استبعدت من مجال الدراسات الاقتصادية . ولهذا السبب فقد حاول فى مؤلفه (المقدمة) أن يفهم الجوانب غير العقلانية للسلوك الانسانى ، بحيث الغى كلية الجوانب العقلانية للسلوك ، وذلك لاقتناعه بأنها قد درست بدرجة كافية بواسطة النظرية الاقتصادية (٥٤) .

ذلك يعنى أن باريتو كان يبحث عن تحديد عقلانية اللاعقلانية السائدة . وهو فى ذلك لم يقصد أن يتخلى عن النظرية الاقتصادية ، على طريقة فبلن †Veblen، ولكنه حاول استبدال تجريداتها بالمفاهيم السوسيولوجية والسيكولوجية التى قد تساعده على فهم جوانب السلوك البشرى . اذا فما كان يهدف اليه باريتو ، هو الفصل التحليلى بين العناصر الرشيدة أو غير الرشيدة للفعل أو السلوك ، وليس الى تصنيف السلوك الواقعى . (فنحن لانسعى الى تصنيف الأفعال كما هى فى الواقع ، ولكننا نحاول تحديد العناصر التى تميزها) (٥٥) .

واذا كان الانسان قد بقى دائما كائنا اقتصاديا ، غير أنه فى الواقع يعتبر كائنا أكثر تعقيدا من مجرد كونه كائنا يبحث عن اللذة . ولفهمه فان علينا أن نأخذ فى الاعتبار مشاعره وغرائزه وتحيزاته . ومن ثم فلكى نفهم الظواهر الاقتصادية الحقيقية والمعقدة ، فاننا ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار كل العوامل الهامة التى أغفلناها فى تحليلنا الاقتصادى . وهى العوامل التى توجد فى الواقع وتؤثر على الظواهر الاقتصادية الخالصة . وعلى هذا النحو يعتبر علم الاجتماع هو العلم الوحيد الذى يستطيع أن يأخذ فى الاعتبار كل النتائج التى وصلت اليها الدراسات الاقتصادية والعلوم الاجتماعية الأخرى ، بحيث يستطيع هذا العلم – علم الاجتماع – أن يؤسس تأليفا بين هذه المعطيات بما يساعد على فهم السلوك الانسانى .

وفى محاولة تحديد طبيعة العلم يرفض باريتو الطابع التأملى للتفكير ، مؤكدا على ضرورة أن يتميز العلم بالطبيعة التجريبية المنطقية . وهو مايعنى تضمن العلم لعنصرين رئيسيين : البرهنة المنطقية وملاحظة الحقيقة . وتعتبر البرهنة المنطقية بطبيعتها أسلوبا عاجزا عن تأسيس النتائج الضرورية التى تذهب أبعد من اللغو الكلامى . غير أنها برغم ذلك تعتبر عنصرا أساسيا فى البناء المنهجى لعلم الاجتماع . ومع ذلك ، فمن المعتقد أن تظل هذه البرهنة المنطقية خاضعة للعنصر الآخر الذى يتمثل فى الحقيقة (٥٦) التى تم الوصول اليها تجريبيا أو عن طريق الملاحظة .

وباعتبار أنه قد أكد على ضرورة أن يكون العلم تجريبيا – منطقيا فان ذلك يعنى ضرورة استناده الى الملاحظة والتجربة واستبعاده لكل تفكير أو تأمل يذهب بعيدا عن الحقائق موضع الملاحظة . اذ لا ينبغى أن تتضمن قضايا علم الاجتماع شيئا أكثر من وصف الحقائق واطراداتها . ومن ثم فعلى علم الاجتماع – اذا ماتأسس – أن يؤدى دوره بواسطة مفاهيم أو تصورات تتعلق بالاعتماد المتبادل ، والعلاقات الوظيفية المتبادلة ، والاطرادات والانتظامات ، والارتباطات فى الزمان والمكان ، وأيضا بواسطة القياس الكمى . ذلك يعنى ان على علم الاجتماع أن يستبعد الأفكار المتعلقة بالاعتماد الأحادى الجانب ، أو المتعلقة بالسبب أو النتيجة ، بالمفرد وغير المطرد والمتميز . وبهذه الطريقة سوف يكون علم الاجتماع قادرا على الوصول الى مجموعة من التعميمات التى تقترب من الواقع الاجتماعى المتشابك بصورة أكثر دقة (٥٧) .

واذا كان موضع اتفاق بين جمهرة الباحثين ، أن يصبح العلم علما اذا هو قد امتلك نظرية خاصة به ، ومنهجا يستند الى هذه النظرية فى ادراك واقع يتحدد كمجال لهذا العلم فاننا نرى أن تحديد باريتو لموقفه من هذه المكونات الثلاث ينم عن موقف متميز خص به نفسه

. ففيما يتعلق بالموقف من النظرية نجده يؤكد أن الحقيقة التجريبية لاتتضمن بالضرورة كلية الظاهرة الواقعية ، ومن ثم تتكون نظريات العلم التجريبى المنطقى من القضايا المتعلقة بـ لحقيقة بحيث تكون هذه القضايا مرتبطة ببعضها البعض بواسطة نوع من البرهنة المنطقية (٥٨) . غير أننا نصل الى الحقائق المتضمنة فى صياغة النظرية من خلال عملية التحليل ، ومن ثم فهى ليست بالضرورة توصيفات كاملة للظواهر الواقعية . ويذهب باريتو الى القول (بأنه من المستحيل أن نتعرف على ظاهرة واقعية معينة بكل تفاصيلها) . ولايعتبر نقدا للنظرية له قيمته حينما نذهب الى القول بأنها لا تفسر بصورة كاملة الظاهرة الواقعية ، بل على العكس من ذلك ، فانه يعتبر ميزة لها . وعادة ماتصف الحقائق أو القضايا الكائنة فى بناء النظرية ، العناصر أو الحوانب أو الخواص المتعلقة بالظواهر فى كليتها . وعلى هذا النحو نجد أن باريتو يرفض بوضوح النزعة الامبيريقية التى نجدها عند مارشال ، مؤكدا أن على العلم أن يحلل الظواهر الواقعية المعقدة أولا ، حتى يمكنه الوصول بعد تحليلها الى النظريات التحليلية ، التى يمكن من خلال التركيب أو التأليف بينها أن نصل الى تقدير علمى لأى من جوانب الحقيقة الواقعية (٥٩) .

ويحاول باريتو أن يعطى توضيحا لذلك من بناء النظرية الاقتصادية ، حيث يذهب الى القول (بأننا اذا افترضنا (ق) باعتبارها نظرية الاقتصاد السياسى ، فان الظاهرة الواقعية لاتتضمن عادة العنصر الاقتصادى فقط (أ) ، ولكن يوجد بها عناصر سوسيولوجية أخرى مثل (ب) ، (ج) .. ، .. ، ويصبح من الخطأ أن نحاول أن نضمن فى الاقتصاد العناصر السوسيولوجية مثل (ب) (ج) .. ، .. ، كما يفعل كثيرون . ويتمثل الطريق الذى اتخذه باريتو لتأسيس النظرية التحليلية المجردة والتى يمكن أن تناظر النظرية الاقتصادية ، فى أنه لم يضع النظرية فى مواجهة الحقيقة . ولكنه حاول تضمين عنصر التجريد النظرى فى مفهومه عن الحقيقة ذاتها . وحسبما يذهب ، أنه اذا كانت مبادئ العلم التجريبى تعتمد كلية على الحقائق ، فان ذلك يصبح متيسراً فقط ، لأن الحقائق أصبحت ملاحظات بالنظر الى إطار تصورى ، ومن ثم فهى ليست توصيفات كاملة للظواهر الواقعية (٦٠) .

ثم ينتقل باريتو الى نقد النظريات القائمة فى علم الاجتماع مؤكدا أن معظم النظريات السوسيولوجية القائمة حتى الآن ليست قضايا تجريبية منطقية . وبدرجة ما يمكن القول بأنها كلها ذات طبيعة دوجماطيقية وميتافيزيقية ، وتجريبية غير منطقية ، ومطلقة وذات بعد أخلاقى . هذه النظريات عادة ما تتجاوز حدود الحقائق والملاحظة والتجريب ، وحتى المنطق . ومن وجهة

النظر هذه فان علم اجتماع هربرت سبنسر ، وأوجست كونت يفتقد الى حد كبير الطبيعة العلمية ، لأنه يمثال النظريات الثيولوجية والدينية التى ينتقدها . حيث أدخلت علوم الاجتماع هذه (الخاصة بكونت وسبنسر) فى نظريات عناصر تتجاوز الحقيقة تحت أسماء أخرى ، وتتجاوز التجريب أيضا . وهى ذات نزعة دوجماطيقية ، وأخلاقية ، مثل ديانة التطور والتقدم ، أو ديانة الوضعية ، وغير ذلك من المسميات . هذه النظريات لاتعتبر شيئا أكثر من مجموعة من القضايا المطلقة التى تحتوى على عناصر كثيرة تتجاوز الحقيقة والملاحظة . وأنها لا تختلف عن النظريات الدينية التى تنقدها سوى فى الصياغة اللفظية . فالنظريات السوسيولوجية المتعلقة (بديانة الانسانية) (وديانة التضامن والاتحاد) (والديموقراطية) . ومفاهيم (التقدم) (الاشتراكية) (التطور) (الأخاء) (الحرية) (العدالة) (المساواة) وغير ذلك من النظريات والمفاهيم التى تبشر بما ينبغى أن يكون وبما لاينبغى أن يكون ، أو تلك التى تقيم ماهو خير وماهو ضار ، أو كل القوانين المتعلقة بالتطور والنمو هذه النظريات أو التصورات المنتشرة بوفرة على خريطة الفكر الاجتماعى والسوسيولوجى المعاصر ، نجدها كلها تأسيسات نظرية غير علمية ، وهى كأى ميثولوجيا . وذلك لأنها ليست إلا صياغة معاصرة لهذه الثيولوجيا . ومثل الثيولوجيا ، لا تعتمد هذه النظريات على الحقائق والملاحظات الواقعية ، هذا الى جانب أنها لاتصف خصائص أو اطرادات هذه الحقائق ، ولكنها عادة ماتوصى بما ينبغى أن يكون ، أو هى تفترض وجود كيانات خارج الملاحظة والتجريب (٦١) .

فاذا كان ماسبق هو موقف باريتو من النظرية العلمية ومنطق تأسيسها ، فما هو طبيعة موقفه من مجال دراسة هذا العلم . فى هذا الصدد يرى باريتو أن المجتمع يشكل مجال الفعالية احقيقية لعلم الاجتماع . والمجتمع بالنسبة لباريتو هو عبارة عن نسق من القوى الموجودة فى حالة توازن . حيث يحتوى المجتمع على مجموعة من العناصر المتضمنة فى هذا النسق ، كمجموعة الفيزيقية (التربة ، المناخ ، النبات ، الحيوان ، التركيبة الجغرافية للبيئة) ثم مجموعة العوامل أو العناصر الخارجية (كالمجتمعات الأخرى التى قد تصبح على اتصال بالمجتمع) والعناصر أو العوامل الداخلية (التى تتضمن السلالة ، العواطف ، المشاعر ، الأيديولوجيات) . وقد كان باريتو مهتما أساسا بدراسة العوامل الداخلية ، حيث نجده يؤكد أن طبيعة المجتمع - كنسق سلوكى - تتحدد داخليا بواسطة خصائص أفعال الأفراد الذين ينجزون فعلا فى اطاره . ولما كان هؤلاء الأفراد لا منطقيين ، فان العوامل غير المنطقية هى التى تحتل مكانة جوهرية فى بناء المجتمع . واستنادا الى ذلك أوقف باريتو جزءا كبيرا من

كتابه (المقدمة) لتوضح ان كافة التفسيرات التى حاولت تفسير السلوك الانسانى لم تلمس هذه العناصر الجوهرية (٦٢) .

واستنادا الى ذلك فان التصنيف الرئيسى للأفعال الذى ينبغى أن يأخذ به علم لاجتماع كعلم هو أن يصنف نماذج الفعل الى نماذج منطقية ونماذج غير منطقية . وقد اعتقد باريتو أن كل الجهود الانسانية لتفسير السلوك الانسانى قد سارت فى الاتجاه الخطأ . حيث اتجهت معظم التفسيرات الثيولوجية ، والفلسفية ، وحتى العلمية التى تجاهل العناصر غير المنطقية فى السلوك الانسانى . ويمكن أن نجد أمثلة على ذلك فى أعمال أرسطو Aristotle وأفلاطون Pla-to بوليبوس Polybuis ، فوستال دى كولانج Fustel do Coulange ، كونت Conte ، سبنسر Spencer .

وتشكل (الرواسب Residues) الملامح الأساسية للفعل وليست المشتقات Derivations . باعتبارهما العناصر المتغيرة ، نقطة البدء الحقيقية لعلم الاجتماع التجريبى المنطقى . وتعتبر الرواسب دوائم أو ثوابت غير منطقية ، وهى بطبيعتها تجليات للعواطف . وتتطابق الرواسب عند باريتو – من مختلف الجوانب – مع مايصفه شوبنهاور Schopenhauer ونيتشه Nietzs-che (بتجليات الارادة) . ويعتقد باريتو أن الرواسب تعتبر القوى الحقيقية الكامنة وراء تأكيد التوازن الاجتماعى ، هذه الرواسب تنقسم الى ستة فئات :

١ – رواسب الترابط Residues of Combination .

٢ – رواسب استمرار التجمعات Residues of persistence of aggregates .

٣ – رواسب اظهار العواطف من خلال الأفعال الخارجية Residues Manifestation of Sentiments throught external acts .

٤ – رواسب الألفة Residues of Sociality .

٥ – رواسب التكامل الفردى Residues of individual integrity .

٦ – رواسب الجنس(٦٣) Sex Residues .

وينبغى أن لاتقتصر دراسة علم الاجتماع على الرواسب فقط وانما عليه أن يتجاوز ذلك لدراسة علاقة الرواسب بالمشتقات . هذه المشتقات تتكون من الأساليب التى يبرر بها البشر أفعالهم ويشرحونها . وفى اطار ذلك يؤكد باريتو أن هناك أنواعا عديدة من المشتقات .

١ – التأكيد البسيط Simple Affirmation وهى القضايا المتعلقة بالحقائق الواقعية أو الخيالية .

٢ – السلطة Authority ، حيث التفسير الزائف للأحداث من خلال التأكيد على سلطة الماضى ، سلطة العادات والتقاليد ، أو سلطة الارادة الألهية .

٣ – السير حسب المبادئ والعواطف Accord with sentiments or principles ، وهى المشتقات التى تحاول طرح تبريرات للسلوك مستندة الى الحقيقة التى تفترض أن هذا السلوك من أجل فائدة الآخرين .

٤ – البراهين اللفظية Verbal proofs ، وهى التى تتكون من استخدام الألفاظ أو المصطلحات حسب الحقائق ، أو الشعارات وما الى ذلك .

وتتصل المشتقات أساسا بما يفضل الدارسون فى الغالب تسميته (بالايديولوجيات) حيث تعتبر هذه الأيديولوجيات تبريرات زائفة للسلوك (٦٤) .

ويتصل بذلك أن على علم الاجتماع أن يبحث فى طبيعة توزيع الرواسب فى المجتمع بما يساعد على خلق حالة من الاستقرار الاجتماعى أو حالة من التوازن بين الصفوات (الأسود ، الثعالب) . هذا الى جانب دراسة علم الاجتماع لحالات اهتزاز توزيع الرواسب على هذا النحو بما يفرض اهتزاز التوازن واقبال المجتمع على مايمكن أن يسمى بدوره الصفوة . فهو يهتم بقضايا الصفوة بين التوازن والتغير الاجتماعى . وهى موضوعات قدم فيها فلفريدو باريتو اسهامات بارزة وواضحة .

ثانيا : المنهج فى علم الاجتماع ، الأبعاد والاجراءات .

لاتختلف البنية المنهجية للنسق النظرى عند فلفريدو باريتو عنها عند معاصريه . وذلك باعتبار كونها أنساقا نظرية عايشت الاتجاهات النظرية العامة (المثالية ، النفعية ، الوضعية ، الامبيريقية) ، وهى اتجاهات كانت لها مداخلها المنهجية المحددة . ومن ثم فقد كان منطقيا – أيا كان الانتماء النظرى للنسق النظرى – أن تنعكس منهجيات هذه الاتجاهات النظرية العامة بصورة متفاوتة داخل الأنساق النظرية للمرحلة الكلاسيكية . وهى الملاحظة التى تجسد نفسها فى البنية المنهجية لنظرية باريتو عن المجتمع . اذ يكشف فحص هذه البنية المنهجية عن تميزها بالملامح الأساسية التالية .

ويعتبر تبنى المدخل المنهجى الذى اتبعته العلوم الطبيعية والاقتصادية هو المدخل الملائم لدراسة الحقيقة الاجتماعية . ذلك أن باريتو كان يأمل فى خلق علم اجتماعى مكمل أساس لدراسات الاقتصاد السياسى . ويتخذ من العلوم الطبيعية مثالا له . وفى هذا الصدد نجده يؤكد فى كتابه (المقدمة) أن هدفه الوحيد الذى أصر عليه هو البحث عن فهم الحقيقة التجريبية ، وذلك عن طريق تطبيق المناهج التى أتبعت فى العلوم الفيزيقية والكيمياء والفلك ، والبيولوجيا ، وغيرها ، فى اطار العلوم الاجتماعية (٦٥) . ذلك يعنى أن هناك مصدران رئيسيان كان لهما تأثيرها على البناء المنهج لباريتو . **الأول** ويتمثل فى العلوم الفيزيقية الحديثة التى كانت قد تمكنت فى هذه الفترة من تطوير أساليب واجراءات منهجية دقيقة للغاية . ومن ثم فقد قدمت هذه العلوم النموذج العام الذى ينبغى احتذاؤه . ويتمثل المصدر **الثانى** فى النظرية الاقتصادية التى قدمت مثالا رائدا لعلم يتناول السلوك الانسانى . علم تمكن بالفعل من تطوير نظرية مجردة لا تتصل بالظواهر الاجتماعية الواقعية اذا هى لم تترابط مع بعض العناصر السوسيولوجية الأخرى المتعلقة بهذه الظواهر . ويمكن القول بأن الموقف من طبيعة تحليل النظرية الاقتصادية هو الذى شكل نقطة البدء فى التحليل العينى الذى قاده باريتو بعد ذلك (٦٦) .

ذلك يعنى أن وقوع باريتو تحت تأثير هذين المصدرين المفكرين أسسا لديه التزاما بعلم الاجتماع كعلم تجريبى منطقى يستند بالأساس على ملاحظة الحقائق والتجريب بشأنها . ومن ثم أن نرفض أى تأمل أو تفكير عقلى أو أخلاقى يتجاوز الحقائق ذاتها . أو لا يصف اطراداتها أو الخصائص المتعلقة بها ، باعتباره لايشكل عنصرا فى علم الاجتماع التجريبى المنطقى . وبعبارة أخرى ، فان علينا أن نرفض ، أى قضايا أو مبادئ مسبقة من أن تتدخل فى الفهم المتعلق بعلم الاجتماع . فقضايا ومبادئ علم الاجتماع ليست شيئا أكثر من وصف الحقائق واطراداتها . وعلى هذا النحو فهى ليست قضايا مطلقة ولكن نسبية ، وهى أيضا معروضة للتغير بمجرد ظهور حقائق جديدة تشكك فى دقتها . ومن ثم ينبغى أن يستبعد من مجال علم الاجتماع مقولات مثل الضرورة necessity ، الحتمية Invitability الصدق المطلق absolute truth . وذلك لأن قضايا العلم ينبغى أن تكون احتمالية (٦٧) ، وهو مايعنى ضرورة أن يتبنى علم الاجتماع المنهج التجريبى المنطقى الذى يعتمد أساسا على الملاحظة والاستنتاج المنطقى وفقا لقواعد الاستقراء الأساسية ، تلك التى حددها جون ستيورات مل . حيث يتكون العالم التجريبى – فى رأى باريتو – القابل للملاحظة من ظواهر وعلاقات من الممكن ادراكها بالحواس ، وعادة ما يتيسر اخضاعها للقياس (٦٨) . ومن هذا المنطلق كان نقده للأنساق

النظرية التى طورها كل من كونت وهربرت سبنسر ، وغيرهما من المفكرين الذين عايشوا هذه المرحلة .

واستنادا الى ذلك يرفض باريتو الاستقراء كمنهج يصل من خلاله الى تطوير اطاره التصورى لتحليل العنصر غير المنطقى فى السلوك أو الفعل الانسانى . اذ نجده بعد استعراض مجموعة هائلة من الحالات فى التاريخ الماضى والحاضر – متخذا موضوع دراسته النماذج العديدة للأيديولوجيات كالمعتقدات والمذاهب التى تدفع عادة الفعل البشرى الى أنماط معينة من السلوك أو الفعل – يصل الى نتيجة أن كل أنساق المعتقدات غير العلمية هذه ، وكل النظريات القائمة من النادر أن تشكل عوامل محددة أو محتمة للفعل أو السلوك ، وانما هى الى حد كبير تعبر عن عواطف كامنة فى العمق . وأن دورها الرئيسى يكمن فى تقديم الفهم المنطقى للسلوك بحيث تجعله يبدو وكأنه نتيجة منطقية لمجموعة من الأفكار (٦٩) . ذلك يعنى أن الاستقراء ينصب على البحث فى الحالات التاريخية فيما يتعلق بالعناصر الكامنة فى السلوك البشرى ، أو مايسميه باريتو بالرواسب ، وليس المشتقات . فما المشتقات سوى تبريرات منطقية للفاعلية الرئيسية لهذه الرواسب ، وهو الأمر الذى يلقى الضوء على موقف باريتو من بعض أدوات العلم الاجتماعى الحديث ، كالاستبيان ، باعتباره وسيلة غير كافية للكشف عن الحقيقة . إذ نجده يؤكد على استحالة استناد أى استنتاج علمى فيما يتعلق بالانسان أو الجماعة أو الفترة التاريخية المحددة ، الى ردود الفعل الكلامية فقط ، حيث أن ردود الفعل الكلامية هذه بالنسبة لباريتو تعتبر مجرد مؤشر مضلل للغاية ، فيما يتعلق بطبيعة الرواسب الكامنة التى نريد الكشف عنها أو فهمها (٧٠) .

ذلك يفرض ضرورة الاهتمام بتوضيح وجهة نظر باريتو فيما يتعلق بالحقيقة الاجتماعية التى ينبغى أن تكون موضوعا للاستقراء العلمى . حيث نجده فى مختلف كتاباته يحاول بدأب تقديم تحديد واضح لمجال الحقيقة العلمية . وفى هذا الصدد نجده لم يستخدم مصطلح (المعطاه المحسوسة Sence Datum) أو أى من المصطلحات المتصلة بها ، ولكن كانت الخبرة أو التجربة هى مصطلحه المفضل . وهو المصطلح الذى يشير بوضوح الى استقلال العواطف الذاتية للملاحظ وامكانية التحقق منها . ومن ثم فقد تمت معادلة التجربة بالملاحظة . التى عادة مايشار اليها باعتبارها تساعد البشر على الحكم بين الآراء المختلفة ، ونستنتج من ذلك تميز تصور باريتو بالشمول وقد تتضمن الحقيقة أى قضية يمكن التحقق منها وتتعلق بشىء أو واقعة خارجة عن الباحث الملاحظ ومستقلة عنه . بمعنى أنها :

(أ) فى وجودها وخصائصها ناتجة عن العواطف الخاصة ، عن الحب ، أو الكراهية ، فهى معطاه مفروضة Given على هذا النحو .

(ب) أنه كتأكيد لهذا الاستقلال فانه لباحثين أو أكثر من باحث يدرسا نفس الشئ أو الواقعة أن يصلا الى اتفاق فيما يتعلق بالأسس الرئيسية لتوصيفاتهم لهذه الحقيقة (٧١) .

وفى نطاق هذه الحقيقة الواقعية ، أو التعبير اللغوى عنها ، يمكننا التمييز بين مستويين أو نمطين من السلوك أو الفعل . الفعل أو السلوك المنطقى ، والفعل أو السلوك غير المنطقى . ويحدد باريتو الأولى بأنها الأفعال أو السولكيات التى تستخدم الوسائل الملائمة لتحقيق الغايات والتى تصل منطقيا بين الوسائل والغايات ، بحيث لايكون هذا الوصل المنطقى للوسائل بالغايات من وجهة نظر الانسان القائم بانجاز السلوك أو الفعل ، ولكن أيضا من وجهة نظر الأشخاص ذوى المعرفة العلمية الواسعة . ومن ثم تصبح الأفعال أو السلوكيات المنطقية منطقية من وجهة النظر الذاتية والموضوعية معا . أما الأفعال غير المنطقية فهى ببساطة الأفعال التى لاتدخل فى تحديد طبيعة الفعل المنطقى فهى فئة راسبة Residual Category (٧٢) .

ذلك يعنى أن هناك تناقضا بين نمطى السلوك أو الفعل ، أو أن هناك مستويين . الأفعال المنطقية التى تعتبر فى أساسها نتيجة لعملية برهنة ، أما الأفعال غير المنطقية فتنبثق أساسا عن حالة عقلية محددة ، عن العاطفة أو اللاشعور ، الخ ، ومن ثم يصبح على علم النفس أن يهتم بمثل هذه الحالة العقلية والأفعال أو السلوكيات الناتجة عنها (٧٣) . ترتيبا على ذلك نجد أن هناك مجالين أساسيين للسلوك الانسانى ، كل منهما منفصل عن الآخر . المجال الذى يقع فى نطاق المنطق أو العلم من ناحية ، ثم مجال العواطف من ناحية أخرى . واذا كان العلم يتضمن المنطق ، والملاحظة والتجربة الموضوعية ، والصدق المستند الى هذه العمليات ، فان المجال الآخر هو الفهم التجريبى غير المنطقى nonlogical - experimental وقد اختار باريتو العلم ، غير أنه رفض كلية امكانية أن يغنى العلم عن المجال الآخر . حيث تعتبر العاطفة فى الحقيقة هى القوة الرئيسية المسيطرة فى المجتمع ، أو هى العامل المحتم للسلوك البشرى . واستنادا الى ذلك يميز باريتو بدقة بين القضايا العلمية والقضايا غير العلمية . وفى هذا الصدد نجده يعتبر التجربة الموضوعية هى المحك الوحيد لبناء النظرية العامة ، التى يمكن أن نصل اليها استقرائيا عن طريق وصف العلاقات بين الحقائق . ومن ثم فالنظريات العلمية هى نظريات منطقية – تجريبية . غير أنه يؤكد أن النظريات الأخرى غير المنطقية – التجريبية قد تضيف الى التجربة وتحاول السيطرة على الحقائق . ويلتزم باريتو بوجهة النظر المنهجية التى تنظر الى

القوانين باعتبارها وسائل توجيهية أساسا ، وليست بالضرورة حاكمة لتفاعل الحقائق الواقعية . اذ أنه حينما تتضح العلاقات والاطرادات بين الحقائق ، فان القانون يستخدم عادة للتعبير عن هذه العناصر ، فالقانون ليس قوة تخضع لها الحقائق . ثم يصف أسلوب العالم فى الوصول الى القانون فيؤكد أن العالم يختار ظواهر معينة تصلح للملاحظة ، ثم ينظمها ويصنفها حسب اطار مختار بصورة ارادية ، بحيث تبدو الظواهر وكأنها خاضعة لقانون معين . واستنادا الى ذلك فليست هناك قوانين ضرورية ، ولكن بدلا من ذلك تتفاعل الظواهر وكأن هذه القوانين موجودة . ويحدد العالم درجة احتمالية أن تتبع الظواهر موضع الاهتمام نمطا محددا من التفاعل . وعلى هذا النحو تصبح النسبية الاجتماعية بالنسبة لباريتو كما هى بالنسبة لفيانجر Vaihinger وماخ Mach وبوانكارية الى آخر هؤلاء ، افتراضا أساسيا (٧٤) .

وتنعكس هذه النظرة الى طبيعة القانون ذاته ، حيث يضمن عنصر الضرورة بالنسبة للقانون العلمى فى بنيته المنطقية فقط ، وعلى هذا النحو فالقانون ليس له استثناءات . أما ما نسميه فى العادة استثناءا ليس فى الحقيقة سوى نتيجة للفاعلية أو التأثير الأقوى لقانون آخر غير القانون موضع الاهتمام ، وبهذا المعنى تصبح لكل القوانين العلمية استثناءات . غير أن هذه الضرورة المنطقية ، والتى يمكن أن نطلق عليها (الحتمية المنطقية Logical determinism) ينبغى أن لا تنقل – وفقا لهذا الاعتبار – الى مجال الظواهر الواقعية ، فنسق النظرية المغلقة من الناحية المنطقية ينبغى أن لا يتحول تعسفيا ليصبح نسقا أمبيريقيا مغلقا . اذ أنه على العكس من ذلك ، يمكن أن تقود النظرية العلمية فى حالة تطبيقها امبيريقيا الى قدر من الاحتماليات وليست الضرورات الملزمة (٧٥) .

ويحاول بيترم سروكن أن يحدد ملامح منهجية باريتو بتأكيده أنه تحت تأثير فنيارسكى Winiarsky وآخرين غيره من ممثلى الميكانيكا الاجتماعية نجد أن باريتو متبعا فى ذلك جوسن Gossen . والراس Walras ، جيفونز Jevons ، كورنو Cournot ، ادجوورث Edgeworth ، قد قدم نظرية فى الميكانيكا العقلانية . ثم حاول أن يحدد اتجاهات أو منهجية البحث فى هذا الاطار بتأكيده على ضرورة دراسة نوعين من الحركات ، الحركات الواقعية real والمفضلة Ver-tual وتشكل الأولى تلك الحركات التى تقع واقعيا أما الثانية فهى التى ينبغى اتباعها فى ظروف معينة ، وباعتبارها متضمنة فى الفروض فانها سوف تساعدنا على فهم الخصائص الواقعية . وينبغى أن تكون دراسة تلك الحركات الواقعية وصفية خالصة ، فى حين ينبغى أن تكون دراسة الحركات المفضلة نظريا أساسا . الأولى قد تكون تركيبية ، أما الثانية فهى تحليلية

أساسا . وتنتج عن ذلك الحاجة الملحة لعزل الأجزاء العديدة للظاهرة بدرجة أكثر أو أقل ودراسة كل منهما منفصلة على أمل أن يعاد توحيدها ثانية للوصول الى تصور تركيبي للظاهرة الواقعية (٧٦) .

واذا كان باريتو قد أكد على ضرورة التركيب للظاهرة كمدخل الى فهمها ، فاننا نجده – بهدف طرح تصور بنائي متكامل للظاهرة التي نريد دراستها – يؤكد على ضرورة اهتمام علم الاجتماع بمفهوم العلاقات الوظيفية بين الظواهر الاجتماعية ، بدلا من الاهتمام بعلاقة سببية ذات اتجاه واحد . وفي هذا الصدد ينبغي تجاوز مفاهيم (كالمتغير Variable) (والوظيفة Function) . وبأسلوب منهجي خالص ، فانه من الضروري أن نعزل في البداية متغيرا محددا يوجد دائما كمكون في مجموعة الظواهر الاجتماعية ثم ندرس علاقته الوظيفية بالظواهر الأخرى ب ، ج ، د ، هـ . وينبغي أن نفعل نفس الشئ فيما يتعلق بالمتغيرات الأخرى ب ، ج ، د ، هـ . وحينما ننتهي من هذه المرحلة ، ينبغي تقديم مجموعة القضايا التي تم الحصول عليها بالعلاقة الوظيفية وذلك لدراسة مجموعة معقدة من الظواهر الاجتماعية المتساندة أ ، ب ، ج ، د وينبغي أن يتركز انتباهنا خلال هذه المرحلة التركيبية على العلاقات الاجتماعية المتبادلة والدائمة نسبيا . اذ علينا أن نلاحظ تغيراتها ، في الزمان والمكان . ثم طبيعة العلاقات والارتباطات المتساندة بين هذه المتغيرات . علينا أيضا أن نفهم الاطرادات المتكررة في تنوعاتها وتغيراتها المعقدة ، بحيث نصفها كيفيا ، ونقيسها كميا . أما فيما يتعلق بالحوادث والوقائع الفريدة ، أو غير المنتظمة وغير المتكررة ، أو التي تقع بحكم الصدفة العابرة ، فان علينا اغفالنا على الأقل لمدة من الزمن ، حتى تتوفر لدينا صيغة تتعلق بمجموعة من الاطرادات الأكثر أهمية ، ذات مؤشرات كمية . وبهذه الطريقة فاننا سوف نتمكن من تحقيق سلسلة من الاقترابات المتعاقبة نحو الحقيقة الواقعية المعقدة . وعلى نقيض مداخل المنظرين الذين يميلون الى التبسيط ، فان هذه الاقترابات المتتالية سوف تكون أقرب مايكون الى الدقة ، هذا الى جانب أنها سوف تختلف عن النظريات التصويرية (الوصفية) في أنها سوف تتيح لنا تحديد العلاقات المتبادلة بين الظواهر ، واطراداتها ، ثم المؤشرات الدالة على هذه التفاعلات التي تصف الى حد كبير العمليات الاجتماعية الأكثر أساسية . وعلى هذا النحو يمكن ايجاز الملامح العامة لمنهجية باريتو على النحو التالي :

(أ) تصور الاعتماد المتبادل بدلا من الاعتماد من جانب واحد .

(ب) تصور العلاقة الوظيفية المتبادلة بدلا من علاقة السبب بالنتيجة .

(ج) دراسة العناصر الدائمة للنسق الاجتماعى بدلا من دراسة المكونات الفردية ، والعرضية غير المتكررة .

(د) دراسة الاطرادات والارتباطات المتعلقة بتغير هذه العناصر الدائمة (فى الزمان والمكان) .

(هـ) القياس الكمى للاطرادات ، من حيث تغيراتها وترابطاتها بدلا من الوصف الكيفى الخالص .

(و) أننا اذا اتبعنا هذا المنهج فسوف نستطيع الحصول على مجموعة الصياغات أو المعادلات Formulas التى سوف تمثل بالنسبة لنا اقترابات أو تناولات متتابعة للحقيقة الواقعية المعقدة للغاية من حيث دينامياتها الداخلية .

ومن الضرورى أن ندرك أن هذه القضايا المنهجية تتفق من الناحية العملية مع قضايا كل من بوانكارية H. Poincare ، وماخ ، ودهم Duhem ، وكارل بيرسون K. Pearson ، وكثير من علماء المنهج فى تاريخ العلم . هذا الى جانب أنها تتفق أيضا مع الاتجاهات الحديثة لتفسير العلاقة السببية والحتمية وغير ذلك فى اللوم الطبيعية . حيث بدأت هذه المفاهيم تفقد طبيعتها الميتافيزيقية المتعلقة (بالتحتيم Inevitableness والضرورة Necessity) بحيث تحولت الى نظريات عن العلاقات الوظيفية تستند الى المبادئ الاحتمالية . ويتفق مع مبادئ باريتو أيضا ذلك التطور الحديث الذى حدث للدراسات الكيفية للظواهر الاجتماعية ، وتلك الخاصة بالاحصاء الرياضى ،ونظرية الارتباط الرياضى (التى تتضمن الارتباط الجزئى) ، والميل الى الاكتمال فى النظريات الرياضية للمتغيرات (٧٧) .

ذلك يعنى أننا اذا حللنا البناء المنهجى الذى أسسه فلفريدو باريتو باعتباره المنهجية التى ينبغى أن تكون لعلم الاجتماع ، فسوف نجد أنه يتميز بخاصيتين :

١ - أنها منهجية تتصل الى حد كبير من حيث المدخل المنهجى ، أو من حيث طريقة التحليل والتركيب بالمنهجية المتبعة فى العلوم الطبيعية والتى رضيت بها الوضعية منهجا لعلم الاجتماع .

٢ - أنه برغم هذه الطبيعة الوضعية الصارخة ، نجد أن لدى باريتو تأثيرات مثالية ، كاعتبار الرواسب الكامنة المادة الحقيقية التى ينبغى أن يتناولها علم الاجتماع دون

المشتقات . وفى ذلك خلاف مع الموقف الوضعى وأيضا الموقف الذى ترضى به اللوم الطبيعية التى تكتفى بما هو ظاهر بغض النظر عن ماهو كامن .

٣ – أننا نلاحظ أن باريتو قد طور منهجية ذات طبيعة متطورة الى حد كبير ، كفكرة القول بالطبيعة المعية لجمع من المتغيرات فى صياغة التفاعل الاجتماعى ، هذا الى جانب معرفة تأثير كل من متغيرات الواقعة كل على حدة لمعرفة تأثيرها النسبى ، الى جانب التبشير بعلم الاجتماع الرياضى ، وغير ذلك من التطويرات .

غير أن القضية الرئيسية التى نلاحظها فى هذا الصدد تتمثل فى أن باريتو – ككل معاصريه – لم يطور منهجية ذات طبيعة وضعية أو مثالية خالصة . حيث قامت البناءات المنهجية لهذه المرحلة باعتبارها محاولات تركيبية لعناصر منهجية تنتمى لأنساق نظرية متباينة الى حد كبير .

ثالثا : التفسير المنهجى ، مبادئه الرئيسية .

فى أعقاب تحديدنا لهوية علم الاجتماع عند باريتو ، وأيضا لطبيعة الادراك المنهجى الذى اتبعه فى النظر الى حقائق الواقع الاجتماعى وتناولها بالبحث والدراسة ، فاننا سوف نحاول فى هذه الفقرة تحديد مجموعة المبادئ المنهجية التى شكلت العمود الفقرى لنظرية باريتو عن الانسان والمجتمع . غير أننا قبل أن نشرع فى سرد هذه المبادئ نرى ضرورة تصنيفها الى نوعين أو طرازين من المبادئ ، مجموعة المبادئ المنهجية وهى التى تشكل الموجهات العامةلنظرة الباحث الى الحقيقة موضع الاهتمام والدراسة . ثم مجموعة المبادئ العينيةالتى تتصل بطبيعة العناصر المكونة للحقيقة أو بطبيعة العلاقة بين هذه العناصر ، وفيما يلى استعراض متتابع لمجموعة المبادئ المنهجية والعينية هذه .

١ – يعتبر رفض التفسير الأحادى هو البعد المنهجى الأولفى هذا الصدد . حيث يرفض فلفريدو باريتو كل صور التفسير السوسيولوجى التى تستند فى رؤيتها للواقع الاجتماعى بالنظر الى عامل واحد ، وهو نمط التفسير الذى يختزل الحياة الاجتماعية الى عوامل أو أسباب بعينها (٧٨) .

ويعتبر نقد مفهوم السببية الأحادية الجانب أحد الأجزاء الهامة فى منهجية باريتو الموجهة أساسا لدراسة الظواهر الاجتماعية . حيث يفترض ، مفهوم السبب والنتيجة علاقة اعتمادية من جانب واحد بين ظاهرتين أو أكثر . ذلك أن مثل هذه العلاقة ليست لها

وجود واقعى فيما يتعلق بالعلاقة بين الظواهر الاجتماعية ، حيث أن هذه العلاقات متساندة كقاعدة أساسية . وعلى سبيل المثال اذا أثرت خصائص أعضاء المجتمع على تنظيمه الاجتماعى ، فان التنظيم الاجتماعى يؤثر بدوره على خصائص الأفراد . ولهذا السبب فان تصور العلاقة السببية الأحادية الجانب لا يلائم الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية . وحينما يطبق هذا التصور فإنه يبرز النظرية التبسيطية أو النظرية التصويرية . فاذا أخذنا من المجتمع مثالا فاننا نجد أن طبيعته وتوازنه يتكون من أو يعتمد على البيئة الجغرافية (أ) والموقف الاقتصادى (ب) والشكل السياسى (ج) والدين (د) والأخلاق والمعرفة (هـ) ، وغير ذلك من المتغيرات . حيث تؤثر كل من هذه المتغيرات فى الأخرى وتعتمد عليها . ومن خلال تفاعلها فانها تغير على الدوام من طبيعة المجتمع وتوازنه . ومن ثم يتواجد لدينا اعتمادا متبادلا بين هذه المتغيرات ، وتوازنا ديناميا للمجتمع الذى يمكن أن يمر من حالة الى أخرى على النحو التالى :

أ ، ب ، ج ، د ، هـ

أ ، بَ ، جَ ، دَ ، هـَ

أ ، بً ، جً ، دً ، هـً

واستمرارا الى ما لا نهاية .

وعلى ذلك فالمنظر (الذى يميل الى التبسيط المخل للتفاعل) يأخذ عنصرا مثل (أ) معتبرا أياه سببا ، ثم ينظر الى ب ، ج ، د ، هـ باعتبارها نتائج لهذا السبب ، فى حين يذهب منظر آخر يميل الى التبسيط أيضا الى اعتبار (ب) أو (ج) أو (د) سببا ، ثم يحاول النظر الى المتغيرات الأخرى باعتبارها نتائج . وعلى هذا النحو تكون لدينا نظريات كثيرة ومتناقضة تقدم لنا النموذج التبسيطى للنظرية السوسيولوجية (حيث كلها تعتبر نظريات من جانب واحد ، تحاول أن تفسر الحياة الاجتماعية ككل من خلال العامل الجغرافى ، السلالى ، الاقتصادى ، السياسى ، أو أى عامل آخر) . وكنتيجة لهذه الممارسة ، تصبح النظرية ذات طبيعة أحادية ، فتعميماتها غير فعالة ، وتشخيصها زائف ، وقضاياها لا قيمة لها . هذا بخلاف الصراعات التى لاقيمة لها بين هذه النظريات الأحادية أو التبسيطية ، بسبب دفاع كل منها عن مواقعها .

أما ما نعنيه بزيف النظرية التصويرية Cinematographic فنعنى بها أن عالم الاجتماع يلاحظ ويصف الانتقال من (أ) الى (أ) الى (أ) ، وانتقال (ب) الى (بَ) وأيضا (ج) الى (جَ) الى (جً) مثلما نرى صورة تلو أخرى فى سلسلة من الصور الدرامية . وقد وصف هذا الانتقال بواسطة هذه النظريات التصويرية تحت اسم التطور ، فهم بهذا الوصف يقصرون مهتمهم على هذا الاطار ويعتقدون أن كل شئ قد اكتمل فى طريق الدراسة العلمية . ويكمن الزيف فى هذه النظريات – حتى ولو كانت أطرها التصورية دقيقة (وهى مسألة نادرة الحدوث) – فى سطحيتها . فهم لايستطيعون بها أن يقدموا أى تعميم أبعد من الوصف التاريخى والامبيريقى الخالص . هذا الى جانب عجزهم عن تقديم تحديد للاطرادات التى قد تحدث ، اضافة الى عدم تقديم تحليل للظواهر موضع الاهتمام (٧٩) .

٢ – وتعتبر علاقة الأفراد بالمجتمع المبدأ المنهجى الثانى الذى يحاول باريتو من خلاله ادراك التفاعل الاجتماعى . اذ تعتبر هذه القضية من القضايا الرئيسية التى أثارت جدلا خلافيا فى مرحلة الأنساق النظرية الكلاسيكية . واذا كانت الدوركيمية قد اتخذت موقف أولوية المجتمع على الفرد ، بينما رضى ماكس فيبر وكارل ماركس بموقف وسط متأرجح ، فاننا على خلاف ذلك نجد فلفريدو باريتو يحسم القضية على نقيض الموقف الدوركيمى . ومن ثم فنظريته عن المجتمع هى فى النهاية نظرية سيكولوجية . حيث يتحدد التوازن الاجتماعى عند باريتو بواسطة توزع الخصائص السيكلوجية بين الأفراد أو بصورة أكثر تحديدا يعتمد توازن المجتمع على طبيعة توزيع الأفراد الذين يمتلكون هذه الخصائص (٨٠) . فمثلا نجد أن الراسب الجنسى عند اتحادات الجنس أو الشوق الى التجمع ، ولكننا نجد أن له فاعليته أيضا فى بعض الحالات العقلية الرافضة للجنس (٨١) . ويضيع الباحث وقته اذا حاول تفسير تحريمات اجتماعية معينة أو ممارسات دينية خاصة بالنظر الى الظروف الاجتماعية والثقافية الأخرى . وفى هذا الصدد فان على الباحث أن يعلم أن الرواسب فعالة على مستوى الحديث أو الكتابة ، ولها وجودها أيضا وفاعليتها فى الأدب والتراث . وحينما يتحدث المتحدثون عن التراث اللا أخلاقى ، فان ذلك يعتبر فى غالب الأحيان نوعا من النفاق (٨٢) . ذلك يعنى أن تفسير السلوك والتفاعل الاجتماعى ليس بالنظر الى الحقائق الاجتماعية والثقافية ، فالحقائق

الاجتماعية ليست مفسرة لذاتها على مايذهب دوركيم وانما تفسرهم الرواسب الكامنة فى عمق الأفراد الذين يشكلون بناء المجتمع .

٣ – ويعتبر الموقف من الحقيقة الاجتماعية هو المبدأ المنهجى الثالث فى هذا الصدد ، وهى مسألة ينبغى التأكيد الواضح عليها على مايذهب باريتو ، فقد لا يتحد نفع فكرة معينة مع صدقها فى المجال الاجتماعى . فالمنفعة والحقيقة الصادقة ينفصل كل منهما عن الآخر واقعيا . ومن ثم نجده يذكر قارئه باستمرار بأنه اذا برهن على عبث فكرة معينة ، فان ذلك لايعنى أنها ضارة بالنسبة لأى شخص . وعلى العكس فانه اذا برهن على نفع فكرة معينة ، فان على القارئ أن لايفترض أنها صادقة تجريبيا . فمن الواضح أن هناك أفكارا كثيرة منتشرة بين الناس ، ومع ذلك فهى زائفة تماما ، أو أن صدقها مجهول نسبيا . فهناك قضايا حاول باريتو التأكيد على أهميتها بالنسبة له مثل ، من الذى يعتنق مذاهب معينة ولماذا ؟ وماهى نتائج الاعتقاد فى معتقدات مهينة ولصالح من ؟ ثم يؤكد أنه من الضرورى الاجابة على هذه التساؤلات من خلال علم اجتماع علمى (٨٣) .

اذا فعلى نقيض هؤلاء الذين يعتقدون أن كل ماهو حقيقى نافع ، فى حين أن كل ما هو غيبى ضار ، نجد أن باريتو يؤكد أن الموقف يختلف كثيرا عن ذلك . فهناك كثير من التحيزات (المشتقات) التى ساعدت على الحفاظ على تكامل النسق الاجتماعى ، فى حين يسرت (الأساطير) والبدع ، والمعتقدات القديمة ، والغيبيات التى تخلع مسحة من الجمال على الواقع ، هذا الى جانب مشاعر الحماس الملهمة . كل هذه المشتقات قد تكون مفيدة فى بعض الأحيان للمجتمع ، غير أننا نجد من ناحية أن الحقيقة العارية قد تصبح مدمرة للمجتمع . وفى اطار ذلك يصل باريتو الى نتائج قريبة الى حد كبير من تلك النتائج التى وصل اليها ميكيافيلى وسوريل G. Sorel ، وفريزر Frazer ، ليبون G. Lebon ، وآخرين . حيث تعتبر الأوهام والغيبيات – حسب هذا المنطق – ذات أهمية حيوية للمجتمع بنفس قدر أهمية الصدق المنطقى التجريبى (٨٤) .

واستنادا الى هذه المقارنة بين الحقيقة والمنفعة نجد أن باريتو يميز بين نوعين من النظريات . النظريات الزائفة علميا ، والنظريات التى تتجاوز التجربة . وفيما يتعلق بالنمط الأول من النظريات يؤكد باريتو أننا نتعامل مع نظريات تبدو وكأنها تحتل مكانة علمية ، غير أنها قد تفشل بوضوح فى الصمود أمام المحكات العلمية . هذه النظريات ترتبط فى النهاية بالحاجات والدوافع والملكات البيلوجية ، ويمكن تفسيرها مباشرة

بالنظر الى الرواسب الكامنة وراءها . ومن ثم فهذه النظريات مجرد تبريرات عقلانية أو رشيدة . أما فيما يتعلق بالنظريات التى تتجاوز الخبرة كالنظريات الدينية على سبيل المثال ، فاننا نجد أن باريتو يقدم برهنة مختلفة ، فهذه النظريات لا تدعى لنفسها الطبيعة أو المظهر العلمى ، ومن ثم يصبح جهدا عديم القيمة اذا حاولنا توضيح مدى ابتعادها عن المحكات أو المعايير العلمية . هذه النظريات تمثل فى الحقيقة قيما ثقافية ، أو هى تشكل البعد الثقافى فى السلوك أو الفعل الانسانى ، ومن ثم فهى تمثل اتجاهات قيمية . وحينما يؤكد باريتو أن الرواسب تكشف عن نفسها فى النظريات الزائفة عاميا ، فان ذلك يعنى أن وجود هذه النظريات يعتبر موشرا على الرواسب ، ودلالة على قدرتها على الخداع . غير أنه حينما يتحدث عن تجلى الرواسب فى النظريات التى تتجاوز التجربة فيبدو أنه يعنى أنها تتجلى أو تعبر عن نفسها فى السلوك الحفوسى الرمزى (٨٥) .

ذلك يعنى أنه اذا نظر ماركس الى نفع الحقيقة وصدقها بالنظر الى البعد الطبقى ، واذا اتحد النفع مع الحقيقة عند دوركيم بالنظر الى الحقائق الاجتماعية فى اطار السياق الاجتماعى ، فاننا نجد أن الأمر مختلف وأن التأكيد على نفع نظرية أو أخرى ، أو صدق نظرية أو أخرى علميا ، انما يعتمد بالأساس على الرواسب البيلوجية الكامنة فى عمق الذات الفردية . والتى بالنظر اليها يتحدد المعنى الرئيسى لهذه النظريات ، وهو موقف يرتد به باريتو الى نوع من الحتمية البيلوجية .

ذلك يعنى أن الصدق التجريبى للنظرية ونفعها الاجتماعى مسألتان مختلفتان . فالنظرية الصادقة تجريبيا قد لا تكون فعالة للمجتمع أو تدعم تفاعله . وقد تكون النظرية صادقة تجريبيا اذا أكدت التجربة ذلك . لكنها قد تكون فى نفس الوقت ضارة اجتماعيا ، أو على عكس ماتذهب التجربة لكنها ذات فائدة اجتماعية . وعلى هذا النحو فتقدير النفع الاجتماعى ينبغى أن يكون منفصلا عن البحث عن المكانة المنطقية للنظريات أو الادراكات الذاتية للفاعلين الأفراد (٨٦) .

٤ – وتعتبر التفرقة بين السلوك أو الفعل المنطقى وغير المنطقى المبدأ المنهجى الرابع فى هذا الصدد . حيث يكون الفعل منطقيا اذا استطاع أن يحقق غاية بطريقة موضوعية . واذا كانت الوسائل المتبعة تتفق موضوعيا مع هذه الغاية فى اطار أفضل معرفة متاحة . أما الأفعال التى تخرج عن هذا النطاق فيعتبرها باريتو جميعا أفعالا غير

منطقية ، (على أن ذلك لايعنى أنها أفعال مخالفة أو مضادة للمنطق) ، واستنادا الى ذلك فلنا أن نتوقع أن تكون الأفعال المنطقية نادرة الى حد بعيد ، حيث لانجد فى كتابة (لمقدمة) سوى أمثلة قليلة جدا لهذا الأفعال ، وأمثلة لها صياغة النظريات العلمية أو السلوك الاقتصادى ، وسلوك المحامين . وهو يعتقد أيضا أن دور القاضى ذاته يعتبر سلوكا غير منطقيا ، والسبب فى ذلك هو أن دور القاضى ينطوى على أمور تتجاوز مجرد التطبيق المنطقى للقواعد القانونية المجردة على الحالات الملموسة . ويذهب باريتو فى هذا الصدد الى أن أحكام القضاء تكشف بدرجة ملحوظة عن عواطف رجال القضاء ، بل أن الاحتكام الى القانون المكتوب يعد بمثابة تفسير بعدى لقرار أو حكم أمكن اتخاذه بأسلوب آخر (٨٧) .

ويرتبط السلوك غير المنطقى بالرواسب والمشتقات . وهذان الأخيران يعدان مظهران للعواطف غير المتناهية ، والتى تشكل حالات نفسية بيلوجية فى المحل الأول . وعلى الرغم من أن باريتو قد أعترف بأنه من العسير التعرف على هذه الحالات على نحو مباشر ، إلا أنه قد كشف عن الطبيعة المميزة لمظاهرها ، تلك الطبيعة التى تتجلى فى الرواسب والمشتقات والسلوك الانسانى . وهكذا يكون من الواضح أن باريتو قد اعتقد أن العواطف بمثابة غرائز أو ميول انسانية فطرية .. وهو يرى من ناحية أخرى أن الرواسب مرتبطة بالظروف التى تعيشها الكائنات الانسانية . وهو يعنى بذلك أن الأفعال التى تتبدى من خلالها تعمل على تدعيم هذه العواطف ، بل انها تثيرها عند الأفراد الذين لا تتحقق لديهم . كما أن العواطف يتحقق وجودها عن طريق استمرار الجماعات ودوامها ، ومن ثم تساعد هذه الجماعات على البقاء (٨٨) .

والحق أن التفرقة بين الأفعال المنطقية وغير المنطقية شكل مجالا لاهتمام كثير من مفكرى هذه المرحلة . وبغض النظر عن الموقف الماركسى المعقد فى هذا الصدد ، نجد أن دوركيم رأى أن المجتمع أو الآخر العام ، يعتبر محكا لقياس منطقية الأفعال أو لامنطقيتها . هذا فى حين أن فيبر قد ميز بين الأفعال تمييزا يقترب به كثيرا من وجهة نظر باريتو فى هذا الصدد . حيث الفعل العقلانى عند فيبر يناظر الفعل المنطقى عند باريتو ، وحيث الفعل العاطفى عند فيبر يناظر الفعل اللامنطقى عند باريتو . هذا الى جانب أن الأفعال العاطفية عند فيبر وغير المنطقية عند باريتو تتصل بالعواطف الأساسية للجماعة أو الفرد كما عند فيبر أو بالرواسب ذات الطبيعة الدائمة عند باريتو .

٥ – وتشكل مكونات الوجود الاجتماعى المبدأ المنهجى الخامس عند باريتو . والى جانب أن هذه المكونات مسئولية عن تخلق هذا الوجود فهى أيضا مسئولة عن تشكلاته العديدة . فهو يذهب الى أن الأشكال الواقعية للنسق الاجتماعى كثيرة ومتعددة . وحينئذ فان علينا أن نتساءل عن ما هى العوامل المسئولة عن أشكال محددة ؟ وللأجابة على ذلك يؤكد باريتو أن شكل المجتمع تحدده كل العناصر التى أثرت فيه . وبالتالى يكون لهذا الشكل – الذى اتخذه المجتمع – تأثير على هذه العناصر . هذا يومكن تصنيف هذه العناصر أو العوامل الى ثلاثة فئات .

(أ) ظروف التربة ، والمناخ ، النبات ، والحيوان . هذا بالاضافة الى الظروف الجيولوجية ، وغير ذلك من الظروف .

(ب) العناصر أو الظروف الأخرى الخارجة عن بنية مجتمع معين فى زمان بعينه وذلك مثل المجتمعات الأخرى التى توجد خارج مجتمع بذاته وأيضا نتائج المراحل السابقة تاريخيا على هذه المرحلة التى يعيشها المجتمع .

(ج) العناصر الداخلية بالنسبة للنسق الاجتماعى ، كالسلالة ثم طبيعة الرواسب أو المشاعر ، والمصالح ، والأيديولوجيات والخصائص الأخرى للذوات الفردية التى تشكل النسق الاجتماعى .

ذلك يعنى أن باريتو يطرح تصورا تعدديا لمكونات النسق الاجتماعى ، حيث تستند هذه المكونات – كقاعدة أساسية – الى بعضها البعض . ومن ثم فلكى نفهم شكلا اجتماعيا معينا ، فانه يصبح من الضرورى معرفة العناصر العديدة المشكلة له كميا ، وأيضا تأثيرها ، وترابطاتها وعلاقاتها ، ولسوء الحظ ، فان هذه المعرفة ليست متوفرة . ومن أجل أن نوفرها فان علينا تبسيط الموقف ، بحيث نتناول أكثر هذه العناصر أهمية ونغفل ولو الى حين العناصر الأقل أهمية . وحينما تتم دراسة هذه العناصر الهامة وترابطاتها أو علاقاتها بعمق أو بصورة كمية ، فان التأليف السوسيولوجى المكتمل أو الناضج سوف يصبح ممكنا . وحتى يتحقق ذلك ، فان علينا أن نقنع أنفسنا بالدراسة المبسطة للنسق الاجتماعى ، وللعوامل الهامة التى تحكم فى توازنه [٨٩] .

وتطبيقا لذلك نجد أن باريتو يختار لنفسه الدراسة المتعمقة لأكثر العناصر أهمية فى تشكيل النسق الاجتماعى أو صياغة توازنه ، هذه العناصر هى :

(أ) الرواسب وهى التى تذكرنا بالميول الوراثية عند البورت ، والمركبات أو العقد عند المحللين النفسيين .

(ب) المشتقات هى التى تتضمن الأيديولوجيات وردود الفعل الكلامية .

(ج) العوامل الاقتصادية .

(د) تباين الكائنات البشورية والجماعات الاجتماعية .

(هـ) لحراك الاجتماعى ودورة الصفوة .

ومن غير الصحيح أن نعتقد أن باريتو يرى أن هذه العناصر تحتوى على كل العوامل الهامة المسئولة عن تشكيل النسق الاجتماعى . فهناك عوامل أخرى كثيرة ذات أهمية . غير أن باريتو لم يدرسها بسبب أن مجرد دراسة العوامل أو العناصر السابقة يعتبر فى حد ذاته جهدا صعبا ومعقدا للغاية . حيث يمكن أن يكمل علماء اجتماع آخرون دراسة العوامل الأخرى دراسة كمية دقيقة (٩٠) .

٦ - وتعتبر النظرة الى علاقة الحاضر بالماضى أحد المبادئ المنهجية الهامة فى النسق النظرى لباريتو . فالتاريخ وان تغيرت مظاهره الخارجية ، إلا أن هناك ثبات مؤكد فيما يتعلق بالعناصر الجوهرية التى تدفع حركته . ومعنى ذلك أن تفسير الماضى من خلال الحاضر هو أفضل من تفسير الحاضر على ضوء الماضى ، وهو مبدأ منهجى تغفله مناهج البحث فى علم الاجتماع (٩١) . ثم يذهب الى تأكيد برهنته بتأكيده قول اقليدس Ecclesiates (أنه لا جديد تحت الشمس) ، فليس هناك تغيرات جوهرية فى التاريخ . ويقصد بكلمة جوهرى هنا نسبة البشر الذين يعتقدون أو مازالوا مستمرين فى الاعتقاد فيما هو لا منطقى . اذ يكتب مؤكدا برغم أنه ليست لدينا إحصاءات دقيقة لكى تحدد العدد الدقيق من هؤلاء البشر ، ومن ثم لكى تحدد مدى تغير نسبتهم الى السكان ككل ، فانه من المؤكد بقاء النسبة على ماهى . وانها لن تنخفض فى المستقبل ، حيث سيظل البشر فى اطار هذه النسبة أغبياء معيبين على الدوام . فالديانات مثلا تعتبر أشكالا متنوعة لجوهر واحد ،. فالاشتراكية قد تجد عكانا لها عن طريق اعادة تجميع فلول المؤمنين بالديانة الكاثوليكية السائدة أو أصحاب النزعة القومية ، بالاضافة الى امكانية استيعاب عناصر أخر كثيرة . ومن ثم يستند التوازن الاجتماعى عند باريتو الى العواطف الدائمة والثابتة . فكل الديانات تنبثق تقريبا من ذات العاطفة . ونتيجة لذلك ،

فان انهيار أى من أشكال المجتمع لابد وأن يصحبه ظهور شكل آخر . غير أن الديانة أو المجتمع تشكل ظواهر دائمة وعامة ، طالما أنها تتجدد أبدا بذات العواطف . وبالمثل فقد يتغير ولاء البشر ، غير أن العواطف التى أدت الى خضوع الطبقة الدنيا للطبقة العليا فى الماضى تعبر عن ذاتها اليوم عن طريق تأكيد خضوع الطبقات الدنيا لقادة النقابات والاحزاب السياسية (٩٢) .

ذلك يعنى أن لدى باريتو تصورا متشائما لحركة المجتمع فى التاريخ ، وعداء كامنا للنزعة التطويرية ، أو لكل التراث الفكرى الذى يؤكد أن المجتمع سائرا أبدا الى الكمال . ذلك أن المجتمع القائم الذى نعيشه سوف لانرى غيره أو نظيره اذا نحن قد توغلنا فى الماضى السحيق أو اذا قفزنا الى الحياة فى قلب المستقبل . ذلك يعنى أن تأكيد باريتو على دوام العناصر الأساسية أو الجوهرية فى بناء المجتمع وعدم تغيرها يطرح رؤية تؤكد على الاستقرار والثبات الاجتماعى ، وهى بطبيعتها رؤية مضادة للتغير الاجتماعى . هذه الأفكار التى طرحها باريتو تعد انعكاسا مباشر لحالة عدم الاستقرار التى عايشها باريتو فى سياقه الاجتماعى .

٧ – وتعتبر العواطف أو الرواسب هى المبدأ المنهجى السابع فى البناء النظرى لباريتو . حيث نجده يذهب الى التأكيد على أن العاطفة هى القوة المسيطرة التى لها وطأتها على السلوك الاجتماعى . ومن ثم فالعقلانية والمنطق يصبحا ذوى أهمية ضئيلة فى ضوء ذلك . فعلى الانسان أن لايهتم كثيرا بالتبريرات التى قد يبديها البشر ولكن عليه أن يفحص العواطف الكامنة وراء ذلك ، حيث تلعب هذه العواطف نفس الدور الذى يلعبه الأساس الاقتصادى بالنسبة لماركس . ولكن بينما تؤدى التغيرات فى النسق الاقتصادى – عند ماركس – فى النهاية الى تغيرات فى أخلاق البشر وأبنيتهم السيكولوجية ، يعتبر الأساس العاطفى عند باريتو كيانا ثابتا ، وأن مايتغير هو التبريرات (المشتقات) التى تحاول تبرير تغير أو تنوع السلوك البشرى (٩٣) .

ذلك يعنى أن باريتو كان يستخدم (العاطفة) كمبدأ تفسيرى أساسى فى كل الحالات . وفى نطاق ذلك نجده يطرح عدة ملاحظات يرفض من خلالها ماتقدمه وجهات النظر المادية والمثالية كمبادئ تفسيرية . فهو من ناحية ينقد النظرية المثالية باعتبارها نظرية خاطئة لكونها تنظر الى الرواسب باعتبارها سببا للحقائق أو الوقائع ، وبالمثل

ينقد النظرية المادية التى تعتبر الحقائق أو الوقائع سببا للرواسب . ثم يؤكد أن الحقائق تؤكد الرواسب وتدعمها ، وبالتالى تؤكد الرواسب على الحقائق تدعمها أيضا . وتحدث التغيرات بسبب وطأة تأثير فاعلية قوى جديدة أثرت على الحقائق أو الرواسب أو كليهما معا ، أى أن ظروفا جديدة هى التى فرضت التغير فى أسلوب الحياة القائم (٩٤) .